



الهداية من الله وحده

(039) سورة الزمر

اللقاء الخامس من تفسير سورة الزمر - شرح الآيات 19-23

2022-02-26

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد.

من أراد السير في الطريق المستقيم فلا يُوقِّفه إلا الله وحده:

مع اللقاء الخامس من لقاءات سورة الزمر، ومع الآية التاسعة عشرة من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَقَاتَتْ تُفْعِدُ مَنْ فِي النَّارِ (19)

[سورة الزمر]

قلنا: إن سورة الزمر موضوعها العام هو التوحيد، وهذه الآية تتصل بالموضوع العام للسورة وهو التوحيد، وبأنه لا يهدي إلا الله. رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له تعالى في آية أخرى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [سورة الشورى] (52)

[سورة الشورى]

بمعنى أنه أُرْسِلَ لِيُذِلَّ النَّاسَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، لَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ أَنْ يُجَيِّرَهُمْ عَلَى الْهَدَايَةِ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُخَيَّرٌ، وَإِذَا أَرَادُوا السَّبِيلَ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ فَلَا يُوقِفُهُمْ إِلَى الْهَدَايَةِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، لِذَلِكَ فِي آيَةٍ ثَالِثَةٍ قَالَ لَهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا يَهْدِي مَنْ أَحْبَبَتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

[سورة القصص]



المُخَيَّرَ بِسِتْطِيعِ أَنْ يَسْلُكَ أَيَّ الطَّرِيقَيْنِ يَرِيدُ
فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَّبِعُ هَذِهِ الْآيَةَ لَا يَسْتطِيعُ أَنْ يُنْقِذَ أَحَدًا مِنَ النَّارِ، إِذَا حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، فَمَنْ اخْتَارَ طَرِيقَ النَّارِ فَيَصِلُ إِلَى النَّارِ، وَلَنْ يَسْتطِيعَ أَحَدٌ أَنْ يُبْرِجَهُ
عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ، لِأَنَّهُ مُخَيَّرٌ، فَالْمُخَيَّرَ بِسِتْطِيعِ أَنْ يَسْلُكَ أَيَّ الطَّرِيقَيْنِ يَرِيدُ، هَذَا هُوَ التَّخْيِيرُ، أَنْ يَسْلُكَ هَذَا وَذَاكَ، فَقَالَ لَهُ: (أَقَانَتْ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ) هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنكَارِيٌّ، أَيُّ
لَنْ تَسْتطِيعَ أَنْ تُنْقِذَهُ مِنَ النَّارِ إِذَا حَقَّتْ عَلَيْهِ، حَقَّتْ أَيُّ تَبَيَّنَتْ وَوَجِبَتْ، مِنْ حَقِّ يَحِقُّ إِذَا تَبَيَّنَتْ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَرَدَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي لَهَبٍ، وَأَتْبَاعِهِ،
وَعَشِيرَتِهِ مِمَّنْ لَمْ يَهْتَدُوا، فَهَؤُلَاءِ اسْتَحَقُّوا مِنَ الدُّنْيَا النَّارَ، قَالَ تَعَالَى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَيَّنَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

[سورة المسد]

لأن الله عَلِمَ ما كان وما سيكون، فعلم أن هؤلاء لن يهتدوا بعِلْمِهِ الْمُطْلَقِ، لَيْسَ جَبْرًا وَإِنَّمَا كَشَفَ، كَشَفَ أَنَّهُمْ لَنْ يَهْتَدُوا لِأَنَّهُ صَاحِبُ الْعِلْمِ الْمُطْلَقِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ سَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216)

[سورة البقرة]

فقال: (أَقَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ) ما قال: حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ، الْفَاعِلُ هُوَ كَلِمَةُ وَهُوَ مُؤَنَّثٌ، فَالْمُتَبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ، حَقَّ جَاءَتْ لِلْمُضَافِ إِلَيْهِ وَهُوَ الْعَذَابُ، أَيُّ حَقَّ الْعَذَابُ، لِأَنَّ الْأَصْلَ هُوَ الْعَذَابُ، فَجَاءَتْ مُذَكَّرَةً لِتُنَاسِبَ تَذْكَيرَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَجَاءَتْ كَلِمَةُ بَيْنَهُمَا لِتُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا قِرَاءَةٌ صَدْرًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، كَلِمَةُ أَيُّ قِرَاءَةٌ صَادِرَةٌ وَإِرَادَةُ الْإِهْيَاطِ لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهَا، فَهَذَا حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

{ **وَجَعَلَ يَحْجُرُهُنَّ وَيَغْلِيئُهُ فَيَتَقَحَّمَنَّ فِيهَا، قَالَ: قَدْ لَكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آجِدُ بِحَجْرِكُمْ أَي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرِيدُ أَنْ يَمْنَعَ هَؤُلَاءِ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ السَّقُوطِ فِي النَّارِ لِكُنْهَمُ بِسَبِيلِهِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ وَيَهْوُونَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْقِذَهُمْ، رَحْمَتُهُ تَرِيدُ أَنْ يَقْعُوا فِي النَّارِ، كَمَثَلِ الْقَرَّاشِ وَالذَّبَابِ الَّذِي يَأْتِي وَيَقَعُ فِي النَّارِ، وَصَاحِبِ النَّارِ يَحَاوِلُ أَنْ يَبْعِدَ الْقَرَّاشَ وَالذَّبَابَ لِكُنْهَمُ يَقَعْنَ فِيهِ، إِصْرَارًا، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** }
بِحَجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِيئُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا {

[البخاري]

الحشرات تُلقِي نفسها في النار تُهلِكُ نفسها وهي تطن أنها تستضيء بالنار. قال **أنا آجِدُ بِحَجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ** الحَجْرَةَ هي موضع الإزار، **أنا آجِدُ بِحَجْرِكُمْ** أي رسول الله صلى الله عليه وسلم يريده أن يمنع هؤلاء المنحرفين من السقوط في النار لكنهم يسببون في هذا الطريق وبهوون في نار جهنم، فلا يستطيع أن ينقذهم، رحمته تريد ألا يقعوا في النار، كمثل القَرَّاشِ وَالذَّبَابِ الذي يأتي ويقع في النار، وصاحب النار يحاول أن يبعد القَرَّاشِ وَالذَّبَابَ لكنهم يقعن فيه، إصرارًا، وفي هذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم:

{ **كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى }**

[البخاري]

أي هو بعضيانه كأنه يقول: لا أريد الجنة، فلا أستطيع أن أنقذه من النار، لأنه رفض الجنة بلسان حاله لا بمقاله، فيقول له: **(أَقَمْنُ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ)** أفأنت تُنقِذُ من في النار؟ استفهام إنكاري أي لا تستطيع أن تُنقِذَهُ إِذَا صَدَرَتِ الْإِرَادَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَالْقَرَارُ الْمُحْكَمُ لِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ نَتِيجَةٌ مَا قَدَّمَ وَمَا عَمِلَ.

طاعة الله وقاية من عذابه:

ثم يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
{ **كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى }** }
كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى }
اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمُبْعَادَ (20)

[سورة الزمر]

لكن: حرف استدراك. ما معنى استدراك؟ استدراك كأنك تتحدث بشيء ثم تستدرك، تعود قليلاً إلى الوراء، لكن: هنا لماذا الاستدراك؟ للدلالة على البعد بين الفريقين، أي فريق النار انتهى الحديث عنه **(أَقَمْنُ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةَ الْعَذَابِ أَقَائْتُ تُنْعِدُ مَنْ فِي النَّارِ)**، انتهينا منه، **(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)** وكأنهم في وادٍ آخر بعيد، ليسوا مع هذا الصنف فجاء بـ (لكن) الاستدراك.



تقوى الله أن يُطَاعَ فلا يُعصَى

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ) طبعاً تقوى الله أن يُطَاعَ فلا يُعصَى، وأن يُذَكَّرَ فلا يُنسى، وأن يُشكَّرَ فلا يُكفَّرَ. وأصل التقوى من الوقاية، أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يقابله شيئاً يقيه إياه، ألا ترون مثلاً العامل الذي يلحم الحديد مع بعضه، يمسك بيده وأحياناً شفافاً ويعمل، لماذا جعل هذه الوقاية؟ حتى لا تصيب شرر النار وجهه، فيمسيك الوقاية، هذه هي الوقاية، أن تجعل بينك وبين الشيء وقايةً.

فَعَذَابُ اللَّهِ يَحْتَاجُ أَنْ تَتَّقِيَهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْعَذَابِ وَقَابَهُ، هَذَا مَعْنَى التَّقْوَى، وَالتَّقْوَى أَحْيَانًا تُنْسَبُ إِلَى النَّارِ فَيُقَالُ: اتَّقَى النَّارَ، أَي جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا وَقَابَهُ، وَتُنْسَبُ أَحْيَانًا إِلَى اللَّهِ، فَيُقَالُ: اتَّقَى اللَّهَ تَعَالَى لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُعَذِّبُ جَلَّ جَلَالُهُ.

(لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ) وَأَشَارَ هُنَا إِلَى الرَّبُّوبِيَّةِ، لِيَذْكُرَهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ الْإِلَهَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ تَتَّقِيَهُ، الرَّبُّ الَّذِي يُبَدِّكُ بِمَا تَحْتَاجُهُ.

وصف النار والجنة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُزْفٌ مِنْ قَوْفِهَا عُزْفٌ مَبِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ □ وَعَدَّ اللَّهُ □ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

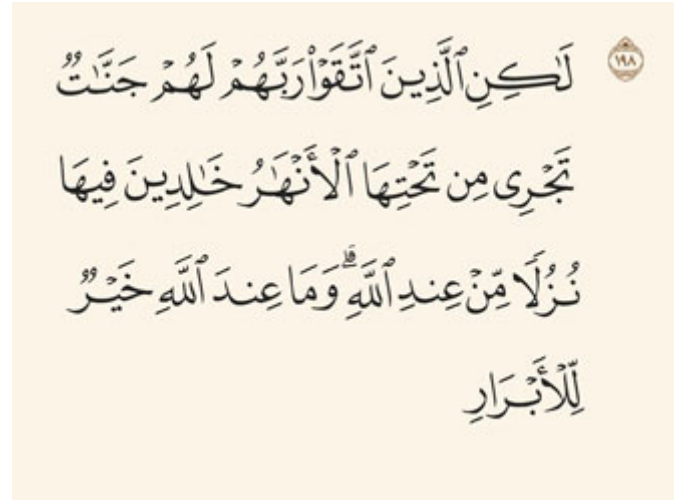
[سورة الزمر]

عُزْفٌ جَمْعُ عُرْفَةٍ، وَالْعُرْفَةُ تَسْمَى عُرْفَةً وَتَسْمَى الْعُرْفَةُ، وَهِيَ شَيْءٌ يُبْنَى فَوْقَ شَيْءٍ، الْعُرْفَةُ. (لَهُمْ عُزْفٌ مِنْ قَوْفِهَا عُزْفٌ) يَوْجَدُ مَقَابِلَ مَا وَرَدَ بِالْحَدِيثِ عَنِ أَهْلِ النَّارِ كَمَا لَاحِظْنَا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ طَلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ طَلَلٌ □ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ □ يَا عِبَادِ فَاتَّقُوا (16)

[سورة الزمر]

هُوَآءِ الَّذِينَ فِي النَّارِ، (لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ طَلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ طَلَلٌ)، أَحَاطَتْ بِهِمُ الطَّلَلُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.



الحديث عن نعيم أهل الجنة في القرآن

هنا (عُزْفٌ مِنْ قَوْفِهَا عُزْفٌ) وقال: مَبِيَّةٌ، أَي مُؤَبِّسَةٌ فِي الْأَرْضِ لَيْسَتْ فِي الْفِضَاءِ وَإِنَّمَا لَهَا أُسَاسَاتٌ مَبِيَّةٌ، هُوَآءِ الْمُتَقَوُّونَ الْعُزْفُ الَّتِي تَحْتَ لَهُمْ وَالْعُزْفُ الَّتِي فَوْقَ لَهُمْ، أَهْلِ النَّارِ (مِنْ قَوْفِهِمْ طَلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ طَلَلٌ) فَلَا يُفْلِتُونَ مِنَ النَّارِ، هُنَا يَنْتَقِلُ بَيْنَ الْعُرْفِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ □ لَهُمْ عُزْفٌ مِنْ قَوْفِهَا عُزْفٌ مَبِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ □ وَعَدَّ اللَّهُ □ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

[سورة الزمر]

العُزْف السفلية تجري من تحتها الأنهار، وهذا من أبدع الصور التي يُكْرِّزها القرآن الكريم في الحديث عن نعيم أهل الجنة، أي لو زار الإنسان القصور التي كانت في الأندلس، ورأى الأنهار تجري من تحت الأبنية لعَلِمَ ماذا يعني هذا المعنى، ولو قرأ قوله تعالى، سليمان لَمَّا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴿ قَلَّمَا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ
مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44)

[سورة النمل]

يلقيس لما دخلت طنَّت أنها تدخل في نهر، فكشفت عن ساقها لئلا تبطل ثيابها، لكن في الحقيقة صرح مُمَرَّد من قوارير والماء تحته، فهذا من أبدع الصور. أحياناً تكون في مزرعة مثلاً، وصاحب المزرعة صاحب أذواق، وعنده مال فيجعل في الحديقة شيئاً من الزجاج الصافي، وتحته ماء على مساحة ضيقة، فما بالك إذا كانت العُزْف هذه كلها تجري الأنهار من تحتها؟! و لَمَّا قال من تحتها يوجد آيات أخرى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي تَحْتِهَا ﴿ الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

[سورة التوبة]

لكن من تحتها يدل على أن النَّع في مكان آخر وجرى النهر تحته، لَمَّا قال في آية أخرى: **(تَجْرِي تَحْتِهَا)** إذاً أيضاً يوجد نبع تحت الجنات.

اليقين أساس في ديننا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
كِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُزْفٌ مِنْ فَوْقِهَا عُزْفٌ مَبِينَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ ﴾ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (20)

[سورة الزمر]



لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ

هنا **(وَعَدَ)** منصوب على المصدر مفعول مطلق، كأن تقول: كتب كتابةً، وَعَدَّ وَعَدَّ، وَعَدَّ وَعَدَّ الله، فهي مفعول مُطْلَقٌ لفعل محذوف. **(وَعَدَّ اللَّهُ ﴾ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)** هذا المصدر الميمي بمعنى الوعد، لا يُخْلِفُ الله وعده، هذا مصدر ميمي على وزن مفعال. فإذا وعد الله تعالى فلا يُخْلِفُ الله الميعاد.

إذا كان هناك إنسان وعدك بشيء تقول: أنا أظن على حسب معرفتي به 90% سئوفاً، إذا قال: عندي، انتهى، اطمئن، إذا قال لك: فلان آخر قال، تقول: والله فلان يعد ولا يفي، يُخلفُ وعده، لا أظن أنه سيفي بوعده، إذا ثالث معروف بأنه لا يفي بالوعد تقول له:

لن يُصيبك شيء لأنه يتكلم من دون أن يُتقَدَّ، فحسب القائل، فإذا كان يقول لك: وعد الله، لا يُخلفُ الله الميعاد، والله تعالى وعد المؤمنين بالجنة، فنحن عندنا الجنة يقين ليست ظناً، نحن الجنة عندنا يقين وليست ظناً، هؤلاء الشاردون عن الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَبَّ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ >span style="font-weight:bold">إِنْ تَطْنُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا
 تَحْنُ يُمَسْتَفِئِينَ (32)

[سورة الجاثية]

المؤمنون موقنون:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (60)

[سورة الروم]

الذي لا يوقن بَسْتَجِئُكَ، يلعب بمشاعرك، بعواطفك، بدينك، بمبادئك، يقبلك، تصبح خفيفاً بين يديه.
فاليقين أساس في ديننا.

أنواع اليقين:

عندنا علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

علم اليقين: أن تعلم يقيناً أن هذا الشيء سيحصل، يقين مئة بالمئة، لكن عين اليقين أن تراه بعينك. لكن حق اليقين أن تصبح معه، تُعائشه بجميع حواسك.

أي إذا رأيت دُخاناً من خلف الجدار، علم اليقين أن تقول: لا دُخان بلا نار، فأنا مُتَيَقِّنٌ أن هناك ناراً خلف الجدار، فلما خرجت ووجدت إلى خلف الجدار رأيت بعينك هذا عين اليقين، ثم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تُمْ لَتَرَوُنَّ عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

[سورة التكاثر]

أما حق اليقين فقد قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)

[سورة الحاقة]

أن تصعب يدك في النار فتحترق، هذا حق اليقين. فنحن الآن عندنا علم اليقين بالجنة والنار، ولا أبالغ إذا قلت: ينبغي أن يكون عندنا ما يقارب من عين اليقين وكأننا نرى الشيء بأعيننا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6)

[سورة الفجر]

لأن الله عندما يُخَدِّثُنَا عن الجنة والنار وكأنه يُصَوِّرُ لنا المشهد، وكأننا نراه رأي العين:
بقي حق اليقين: أن ينعم الإنسان بالجنة، وأن يعيش في جناتها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (51)

[سورة الحاقة]

فهنا (وَعَدَّ اللَّهُ ﻻ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ) يقين.

أدلة على وحدانية الله ووجوده وكمال خلقه:

ثم يقول تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ بِهِ فَتَرَاهُ مُصْفًى ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﻻ يَنْبُتُ فِي ذَلِكَ لِدَكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ (21)

[سورة الزمر]

(أَلَمْ تَرَ) هذه دعوة للنظر والتأمل، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هنا سيسوق ربنا جل جلاله عدة أدلة على وحدانيته وعلى وجوده وعلى كمال خلقه، عدة أدلة من خلال آية واحدة من آياته، لكن في داخل الآية عدة أدلة، انظروا إلى هذه الأدلة:



الرؤية تكون بالبصر وتكون بالبصيرة (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هذا المشهد الذي ألقناه، أمس كان ممطرًا، أي الوضع طبيعي، استيقظنا نظرنا من النافذة وجدنا المطر يهطل، الحمد لله، لكن ربنا عز وجل يقول لك: (أَلَمْ تَرَ)، أي انظر بعين قلبك لا بعين بصرك فقط، بل بالبصيرة، الرؤية تكون بالبصر وتكون بالبصيرة، أنت تقول: رأيت المصحف بصرى، لكن تقول: رأيت الله أكبر من كل شيء، رأيت بقلبي، فهناك رؤية القلب ورؤية البصر. فـ (أَلَمْ تَرَ) ينبغي أن تكون الرؤيا بالعين وبالقلب معًا، فعندما تنظر وتجسد السماء تُمَطِّرُ لا تألف هذا المشهد، لا تألفه وإنما تنظر في عظيم صنْعِ الله تعالى فيه، (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) أي بدءاً بهذه السحاب النِّقَالِ كيف يُوجِّهها الله، يسوقها إلى بلدٍ مَيِّتٍ قُبَيْزِلَ المطر، كيف درجات الحرارة، سرعة الرياح، المسافات بيننا وبين الغيوم، التصادم بين الغيوم، الشحنات، البرق، الرعد، آيات كثيرة، أجملها المولى جل جلاله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً).

(فَسَلَكْهُ) هذه الآية الثانية، سَلَكْهُ: أدخله، أنت الآن عندما تنزل المطر يمكن ألا يسلكهُ أي ألا يدخل في الأرض، أن ينساج على الصخور الملساء وبذهب ولا تنتفع به، ممكن، لكن الآية الثانية **(فَسَلَكْهُ)** أي أدخله، سَلَكْهُ أي أدخله داخل الأرض، جعله سالكاً أي جعل له مدخلاً في الأرض وإلا لما كان هناك مياه جوفية ولا سطحية - أنهار - لَمَّا سَلَكْهُ سِوَاءَ بِمَقَرَّاتٍ تَرَاهَا بِعَيْنِكَ أَوْ بِمَقَرَّاتٍ لَا تَرَاهَا بِعَيْنِكَ، المياه الجوفية، هذه الآية الثانية.

ثم قال: **(يَتَابِعِ)** هذه الآية الثالثة، جمع ينوع وهو ما يتفجر من داخل الأرض، لو أنه سَلَكْهُ، ثم غار في الأرض، ولم يستقر في حَرَائِنٍ وَمَسْتَوِدَعَاتٍ مُحَكَّمَةٍ لَمَا انفجر ينابيع في الوقت المناسب أو في الأبار عندما تحفر البئر، **(فَسَلَكْهُ يَتَابِعِ)** هذه الآية الثالثة **(يَتَابِعِ فِي الْأَرْضِ)**.

(ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا) هذه الآية الرابعة **(يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا)** فالماء نزل لكن من قال لك أن يَبْتُتَ الزرع؟ يمكن أن يُحَرَّنَ وتنتفع به مثلاً بالشراب لكن لا تنتفع به بالزرع، يُخْرِجُ جلالة زُرْعًا هذه الآية الرابعة.

الآية الخامسة قال: **(مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)**، الأرض وإحدة، والماء واحد، والألوان مختلفة، ألوان الزَّهْرِ مختلفة، ألوان الثمار مختلفة، ألوان الأوراق مختلفة، تنظر حتى اللون الأخضر، هناك أخضر بألاف الدَّرَجَاتِ في النبات، ألاف مُؤَلَّفَةٍ مِنَ الدَّرَجَاتِ تنظر فترى من الفاتح جداً إلى الغامق، هذا الأخضر وحده فما بالك بالأزهار مثل الأصفر والزهري والأحمر؟! **(مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)** ثم الثمار تجد منها عدة ألوان، مثلاً ثمرة التفاح بألوانٍ حمراء وصفراء وخضراء، وتجد البرتقال، وتجد غيره من الفواكه، **(زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)** رغم أن الماء واحد والأرض واحدة.

قال: **(ثُمَّ يَهَيِّجُ)** يهيج من هاج يُقال غالباً لعالم الحيوان، هاج الثور مثلاً، هو يُقال حتى للإنسان إذا هاج من حركته الشديدة، يهوج أو يهيج، بالعامية يهوج، هاج يهيج، فيهيج أي ينمو ويرتفع، **(فَتَرَاهُ مُضْفَرًّا)** بعد حين يبدأ فصل الخريف، يعطي الثمار الآن فتراه مُضْفَرًّا ذابلاً.

(ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا) الآية السابعة والأخيرة، **(يَجْعَلُهُ حُطَامًا)** أي مَحْطُومًا، حُطَامًا على وزن فُعَالٍ، بمعنى مفعول محطوم، أي يَحْطِمُ بعضه بعضاً، مُكَسَّرٌ في الأرض، انتهى الموسم إلى الموسم الجديد.

هذه آيات دالة على عظمة الله، وعلى وحدانيته، وعلى كماله.

كل شيء في الأرض له منفعتان ! مادية محدودة وأخرى غير محدودة:



الألباب هم أولو العقول الراجحة

هذه الآيات نفسها قال تعالى: **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ)** يذكُر **(أُولِي الْأَلْبَابِ)** تحدثنا عن أولي الألباب في اللقاء الماضي، الألباب صاحب اللب، يقول: أولو العقول الراجحة أي الذي ينتفع، أولو اللب، اللب هو الإنسان الذي ينتفع مما يرى، لا أقول أن ينتفع بالثمن المادي لأن كل الناس ينتفعون بالثمن المادي، المجنون ينتفع بالثمن المادي، والمخلوقات الأخرى تنتفع بالثمن المادي، لكن أولو الألباب الذين ينتقلون من الصنعة المادية إلى تذكُر عظمة الله عز وجل من خلال الصنعة المادية، لأن كل شيء يُبَصِّرُهُ في الأرض له منفعتان: مادية محدودة، وأخرى غير محدودة.

أنت اليوم إذا أمسكت تفاحة بيديك الفائدة المادية المحدودة أن تتمتع بطعمها الحلو، وهذا أيضاً آية من آيات الله، أنت تمسك التفاح، أقول لك: ما طعم التفاح؟ تقول لي: حلو، خذ الخوخ تقول لي: حلو، والدراق تقول لي: حلو، صف لي إياه بغير كلمة حلو، التفاح تفاح، والوخوخ خوخ، والدراق دراق، هل لديك وصف آخر؟ لا، فقط حلو، هذا الحلو مثل هذا الحلو؟ لا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِزَاتٌ وَجَنَاطٌ مِنْ أَعْتَابٍ وَزُرْعٌ وَتَجِيلٌ صَيَوَانٌ وَعَيْتٌ صَيَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاجِدٍ
weight:bold <weight:bold> وَنُقُصَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ </weight:bold> إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (4)

[سورة الرعد]

هذه لم تأت هنا، هذه آية، الأكل مختلف، صفة؟ والله لا أستطيع أن أصفه، ذقه لتعرف، لا يوجد وصف آخر، طعم تفاح فقط، المشترك أنه حلو، تلك حامض بعض الفواكه الأخرى، لكن لا أستطيع أن أصف لك غير ذلك، هذه آية، **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ)**.

حال الناس مع الوحي:

هذه الآيات التي يذكُرنا بها الله تعالى من الكون تشبه تماماً حال الناس مع الوحي، سيأتي الآن حال الناس مع الوحي، كيف حال الناس مع الوحي؟ النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين ذكر:

{ مَثَلٌ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْعَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا تَقِيَّةٌ، قِيلَتِ الْمَاءُ، فَأُتْبِتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَاتَتْ مِنْهَا أَجَادِبٌ، أُمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَتَقَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَسَرَبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلٌ مَن قَفَعَهُ فِي دِينِ اللَّهِ، وَتَفَعَّهُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلٌ مَن لَمْ يَرْقَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُزِيلَتْ بِهِ } [متفق عليه]

إلني صلى الله عليه وسلم جاء معه هدي من الله وعلم، كمثل العيث، المطر. عيث نزل من السماء، فكان الناس فيه على طوائف ثلاثة، الآن سأذكر الحديث بالمعنى، حتى أفضل الموضوع، فكانوا طوائف ثلاثة؛ النبي صلى الله عليه وسلم يذكر هذه الطائفة الأولى والثانية والثالثة.

الطائفة الأولى: قِيلَتِ الْمَاءُ وَأُنْبِتَتِ الْكَلَّا وَالزَّرْعَ، أَي الْأَرْضُ تَلَقَّتْ مَاءَ السَّمَاءِ انْتَفَعَتْ بِهِ وَأُنْبِتَتْ بِهِ الْكَلَّا.

الطائفة الثانية: وصفها النبي صلى الله عليه وسلم قال: أجاب، جمع جدباء، أرض جدباء، هذه أمسكت الماء لكن لم تُنبت الكَلَّا، فانتفع به قوم آخرون، فسقوا وزرعوا. هذا إنسان صاحب علم قيل العلم لكن لا يوجد عنده فقه، ما تعلم فهو ما انتفع بالوحي منفعه كاملة، انتفع منقعة جزئية لكن لما أمسكه نقله إلى غيره، وكان مصدر خير للناس وليس مصدر شر، انتفع قوم آخرون فسقوا وزرعوا كما يقول صلى الله عليه وسلم.

الطائفة الثالثة: يقول صلى الله عليه وسلم: قِيَعَانٌ لَا أُمْسِكُ الْمَاءَ وَلَا أُنْبِتُ الْعُشْبَ. هذا ما انتفع بالماء، الماء نزل وذهب، لا انتفع به ولا نفع به غيره، فيصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه جاءه الهدى فلم يرفع به رأساً، ما انتفع به أبداً.

هذا المشهد الذي وصفه الله تعالى في القرآن الكريم عن الذين قَبِلُوا الْهُدَى، يُشبهون الأرض بهذا الشكل، لذلك تتناغم هذه الآية مع الآيات الأخرى بهذا الإطار وتتناغم مع ما بعدها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [متفق عليه]
اللَّهُ أَوْلَيْكَ فِي صَلَاتٍ مُّبِينٍ (22)

[سورة الزمر]

نزل الغيث فتلقفه، يشبه حال الأرض تماماً، شَرَحَ فِي الْأَصْلِ يَقُولُونَ فِي عِلْمِ الشَّرِيحِ لِأَنَّهُ يَكُونُ شَرَحَ اللَّحْمِ وَرَأَى مَا تَحْتَهُ، يُشَرِّحُ، فَالشَّرْحُ هُوَ شَقُّ اللَّحْمِ فِي الْأَصْلِ. (شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ) كِنَايَةٌ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ وَكَانَهُ فَتَحَ صَدْرَهُ لِلْحَقِّ.



الإسلام خير مما سواه

(أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) كأن الله تعالى يقول لك: هذا الذي شَرَحَ الله صدره للإسلام هل هو كغيره من الفاسية قلوبهم التي سيأتي بعد حين ذكرها؟ هذا في التَّيَمُّة، أو ما سبق ذكره من الذين خسروا من فوقهم طُلُّلَ وَمَنْ تَجْتَمِعُ طُلُّلٌ، وهذا يسمونه: استفهام تفريري. الأول استفهام انكاري الذي ورد معنا قبل قليل، قال: أَقَائِتُ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ؟ أَي لَنْ تُنْقِذَ مَنْ فِي النَّارِ. هذا تفريري، (أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) هذا الذي شرح الله صدره للإسلام يُعَرِّرُ أَنْ هَذَا خَيْرٌ مِمَّا سِوَاهُ، تفريري.

(أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) الصدر في داخله القلب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَلَمٌ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا [متفق عليه]
الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)

فلَمَّا يَشْرَحُ اللهُ الصِّدْرَ لِلإِسْلَامِ أَي يَدْخُلُ النُّورَ إِلَى الْقَلْبِ، نَوْرَ الْحَقِّ، (فَهُوَ عَلَيَّ نُورٌ مِنْ رَبِّي) كَتَبَ عَنِ الْهُدَى بِالنُّورِ، لِأَنَّ النُّورَ وَاضِحٌ، النُّورَ تَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ عَلَى حَقِيقَتِهَا بَيْنَمَا يُكْتَبُ عَنِ الضَّلَالِ بِالظُّلُمَاتِ، ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

مقارنة بين أهل النور وأهل الضلال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَيَّ نُورٌ مِنْ رَبِّي **﴿ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾** (22)

[سورة الزمر]

الويل هو التُّبُورُ والهِلَاكُ وَالشَّقَاءُ، وَقِيلَ: إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادٍ يُقَالُ لَهُ: الْوَيْلُ. لَكِنْ أَسْلُ الْوَيْلُ هُوَ التُّبُورُ وَالشَّقَاءُ وَالهِلَاكُ.
(قَوْلُ لِقَائِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ **﴿ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾**) انظر لَمَّا قَالَ عَلَى نُورٍ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ، الْمَقَارَنَةُ.
قُلْتُ لَكُمْ سَابِقًا: دَائِمًا الْهُدَى (عَلَى)، النُّورُ (عَلَى)، التَّقْوَى (عَلَى):

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَيَّ تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ **﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَيَّ شَقَا جُرْفٍ هَارٍ قَائِهَارٍ بِهِ فِي تَارٍ جَهَنَّمَ ﴾** وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)

[سورة التوبة]

لأن (على) تُفِيدُ الاستِعْلَاءَ، فَهَذَا الَّذِي يَكُونُ فِي الْحَقِّ وَالْخَيْرِ يَكُونُ مُتَمَكِّنًا مِنْهُ، مُسْتَعْلِيًّا بِهِ، لَا أَقُولُ: مُتَكَبِّرًا، لَا، الْمُؤْمِنُ لَا يَتَكَبَّرُ، لَكِنْ هُوَ بَوْضِعٌ طَبِيعِيٌّ عِنْدَمَا يَكُونُ عَلَى هُدَى فَهُوَ أَصْبَحَ فَوْقَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَخَّرْتُكِ بِمَا تُتْلَى فِيكِ مِنَ الْقُرْآنِ وَجَعَلْتُكِ تَحْتِ الْوَيْلِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا **﴿ وَجَعَلْتُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا قَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾** ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55)

[سورة آل عمران]



التقييم هو تقييم الله لا تقييم البشر

الوضع الطبيعي أن المهتدي هو فوق، ولو وجدت أهل الضلال بالدنيا قد علوا وأصبح لهم شأن، واستقبلهم الإعلام، وبُسطت لهم البُسط الحمراء، لا تلتفت، هذه دينا، لكن عند الله من الذين فوق؟ أهل الهدى. فانت فوق بتقييم الله لا بتقييم البشر، وتقييم المُنصفين من البشر.

المُنصف الحقيقي الإنسان الصحيح السوي السليم، يرفع أهل الهدى ويضع أهل الإضلال، البعيد المُنجرف هذا لا يُقِيمُك، ولست بحاجة إلى تقييمه فلا تلتفت له، فلما يقول: (عَلَى نُورٍ) ثم يقول: (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ) لأنهم غارقون في ضلالهم، فالضلال لا يُتَمَكَّن منه ولا يعلو الإنسان به، وإنما يغيب في داخله، وبأكله الضلال أكلاً. (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وبالمقابل أولئك على هُدًى وهنا (عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ).

(قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ فُلُوهُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ □ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أي ضلال واضح، بَيِّن، لا يخفى، لا يستطيع الإنسان أن يُنكره، لكن هم يُعدهم عن الله طنونا أنفسهم على خير وهم غير ذلك.

من عَقَلَ عن الله أصبح قلبه كالصخر الأَصَمِّ:

(قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ فُلُوهُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وقالوا هنا (من) بمعنى عن، أي قسا قلبه عن ذكر الله، فالقلب كيف يقسو؟ قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
> ثُمَّ قَسَتْ فُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً □ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
 الْأَنْهَارُ □ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَنْسِفُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ □ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ □ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)

[سورة البقرة]

إذاً الحجارة خيرٌ من قلوبكم، لأن الحجارة مهما كانت فاسية لكنها تتحرك عند ذكر الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
> لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ □ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
 نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)

[سورة الحشر]

أما الإنسان إذا عَقَلَ عن الله أصبح قلبه كالصخر الأَصَمِّ، ما معنى الأَصَمِّ؟ أي لا يقبل شيئاً.

أصم لا يدخل شيء في داخله، هناك صخور ليست صمماً، يدخل في داخلها الماء لها بعض المسالك، أما الصخر الأَصَمُّ فهذا حتى لو جاء الماء عليه فإنه يسيل ولا ينتفع الصخر منه شيئاً، هذا الصنف الثاني من الوحي، الصنف الأول: شرح الله صدره للإسلام، هذا يشبهه عندما يجعله خطأً لم يعد هناك شيء لا ينتفع.

القرآن الكريم أحسن الحديث:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَقَمْتُ سَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهَوَّ عَلَيَّ نُورَ مِنْ رَبِّي □ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** □ **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ □**
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (22) اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ □ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَفْسَعُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْسَنُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ
وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ □ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ □ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

[سورة الزمر]

كيف بالمقابل قلنا قبل قليل: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) هنا: (تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)، تَزَلَّ غالباً تأتي مع القرآن بإفاده التتالي في النزول، غالباً كاستخدام قرآني، غالباً تَزَلَّناه أي تَزَلَّ مُتَّجِماً مُعَرَّفَاً، أما قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1)

[سورة القدر]

قيل: هذا النزول الواحد من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَزَلَّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ □ 193 □ عَلَى قَلْبِكَ □ لِيَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ □ 194 □

[سورة الشعراء]

يوجد (نزول) ويوجد (تَزَلَّ)، فهنا (اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)، الحديث غالباً يطلق على الأخبار في اللغة، أي الأمر والنهي لا يقال له حديث. إذا قلت لك: ادرس، هذا ليس حديثاً، لكن لو قلت لك: سأروي لك قصة من القصص، هذا حديث.



القرآن الكريم أحسن الحديث

لو قلت لك: آيات كونية، هذا حديث، أما الأمر والنهي فلا يسمى حديثاً، الله تعالى يسمي القرآن في أكثر من آية حديثاً، لأن ما تنظر فيه من أحاديث سواءً القصص السابقة تعتبر بها، الآيات الكونية تلفتك إلى الله، فهو أحسن الحديث، أي حديث تتحدثه هناك أحسن منه، لكنه ليس أحسن من حديث الله تعالى، الذي يحدثك به عن الأمم السابقة، عما سيأتي من الجنة والنار، عن الآيات الكونية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَزَلَّ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا □ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابِي تَفْسَعُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَحْسَنُونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ □ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ □ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا) هذا أحسن الحديث هو الكتاب.

القرآن كله متشابه لأنه من عند الله:

(كِتَابًا مُتَشَابِهًا) ما معنى متشابهًا؟ إنسان يكتب روايات، عنده عشر روايات، ومشهور بكتابة الروايات، تسأل مئة إنسان: أي رواية أجمل من روايات هذا الكاتب؟ يقول لك: الرواية التي اسمها كذا.

تقريباً يُجمع الناس على أجمل رواية له، بعض الناس يختلفون حسب علاقته هو بالرواية، الآن داخل الرواية تقول له: أي فصل أجمل: يقول لك: الفصل الثاني جميل جداً مؤثر جداً أبدع به الكاتب، الباقي أقل.



التشابه في القرآن الكريم

ليس الحديث متشابهاً بل متفاوتاً، فهناك عند البشر، أو حتى الكاتب نفسه يكتب كتاباً وهو في الثلاثين من عمره، عندما يقرؤه وهو في السبعين يقول لك: هذا كلام مبتدئ، أنا لا أحب أن أقرأه، أجد نفسي كنت جداً بسيطاً لما كتبت، الآن تغير لأن خبرة الإنسان حادثة، فمن حين إلى حين يُبدل ويُغيّر بأدواته وكتاباته، وأسلوبه وخطابه: حتى المتكلم يقول لك: أنا حضرت كلاماً لي قبل عشر سنوات لا أجد فيه نفسي الآن، أجده بسيطاً جداً بالنسبة لما أتكلم به الآن. فلا تجد تشابهاً في الحديث.

يقولون إذا كان الوجه جميلاً: وجه متشابه أو مُقَسَّم، مُجَرَّأ. كيف وجه مُقَسَّم؟ العرب تقولها، أي كل قسم منه يشبه القسم الآخر في جماله، أما أحياناً تقول: والله هذا الوجه سبحان الخالق! العينان جميلتان، لكن الفم غير جميل مثلاً، أما الوجه المُقَسَّم ففيه كل جزء يشبه الآخر في جماله، فعندما تقرأ في كتاب الله تعالى لا تجد من تفاوت، أي لا تقول: هذه السورة أجمل من تلك السورة، نعم قد تقول: أنا أتأثر جداً بهذه السورة لتجربة معها، قرأتها في الغمرة.

الثاني يقول: والله إن سورة البقرة مُحَبَّبة إلى قلبي، أقرأها كل يوم، هذه طبائع البشر، لكن كبلغة بلاغة المضمون، نوع الخطاب، الكلام، الأسلوب متشابه، أينما تقرأ تجد البراعة نفسها، واللغة العظيمة نفسها، والإعجاز نفسه.

وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة كما قال الوليد بن المغيرة وهو مُشرك لكنه قال كلمة حق، والقرآن الكريم لا يَخَلِّقُ على كثرة الرَّد لا يُمل منه، أي كتاب تقرأه مرة مرتين ثلاث تقول: كفى، إلا كتاب الله فإنك كلما قرأته زادك، لأنه كريم، كلما أعطيتَه أعطاك أكثر مما أعطيتَه، تعطيه نصف ساعة من وقتك فَيُعْطِيكَ خيراً كثيراً أكثر من وقتك الذي أعطيتَه، كريم، قرأه كريم.

(اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا) هذا معني المتشابه، والخلق أيضاً، خَلَقَ الرحمن متشابه، ما ترى في خَلْقِ الرحمن من تفاوت، لا تقول: هذا الإنسان من طراز 1970، الآن يوجد أحدث، هو نفسه الإنسان لم يتغير. الكَلِيتَة بمكانها، والكبد بمكانه، والوظائف نفسها، لا يتغير الطراز، ولا تقول: هذا النبات كان شيئاً وأصبح شيئاً، ولا هذا الحيوان، الله تعالى خلق خَلْقاً كاملاً، الحجم ليس له علاقة، لا تقول: والله الإعجاز في خَلْقِ الحوت يا أخي أضخم بكثير من البعوضة، لا، يوجد إعجاز بخلق الحوت، وهناك إعجاز يخلق البعوضة لا تقل عن خَلْقِ الحوت، وأحياناً الدقة والعظمة في الصَّعْر وليست في الكثير، لكن هنا في الصَّعْر وفي الكثير، تنظر إلى الحوت ترى فيه العظمة، ترى البعوضة تقول: هذه عظيمة، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، وفي كلامه لا ترى من تفاوت، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ ﴿ وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) ﴾

[سورة النساء]

كان يقول لك: هذه السورة حلوة، تلك لا بأس، لو كان من عند غير الله، لأنه من عند الله فكله متشابه.

القرآن الكريم يُكَمِّلُ بعضه البعض:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَنَابِي تَفْسَعُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَفُلُوتُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (23)

(مَثَانِي) قالوا: إن الآية تنبئ عن أختها فُتْسِرُّهَا، فتجد القرآن يُكْمَلُ بعضه البعض، والمثاني أحياناً أن فيه تأكيداً وتكراراً للأوامر والنواهي وكأنها اثنان اثنان، مَثْنَى جمع، المثنائي جمع مَثْنَى، وقيل: جمع مَثْنَى وكلاهما صحيح، فالمثنائي تجد الأوامر مُكْرَّرَةٌ لكن بصيغ مختلفة في أماكن مختلفة تؤدي معانٍ مختلفة، فتجد الأمر في التقوى في كتاب الله في عشرات الآيات، ولكن كل مرة بأسلوب وبسياق مختلف حتى في النهاية يحصل لك التقوى.

علاقة اقشعرار الجلد بتأثر القلب:

(تَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) الجلد عندما يَفْسَعِرُ يَتَجَمَّعُ على بعضه أثناء البرد أو الصدمة أو الخوف أو المشهد المؤثر فيَقْسَعِرُ الجلد، واقشعرار الجلد دلالة على تأثر القلب، فلا يقشعر الجلد إلا إذا تأثر القلب، ف جاء هنا بالأثر.

(تَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) هنا (منه) بمعنى لأجله، أي تَفْسَعِرُّ مِنْهُ جلود الذين يخشون ربهم، (نَمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) فالمؤمن إذا سَمِعَ ذكر الله، سَمِعَ القرآن مَثَلَهُ كمثل الأرض التي تتلقى الوحي والغيث وتتفتح به وتُثَبِّثُ به الخير والكلأ.

تعلق مشيئة الله في الهدى برغبة الإنسان:



الهدى هو هدى الله

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ) وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) هذا المعنى تحدثنا عنه كثيراً لكن باختصار الهدى هو هدى الله، ولا هدى إلا هدى الله، وأي إنسان يرسم لك طريقاً يُوهِّمُكَ أنه طريق هدى وليس مُسْتَمَدًّا من وحي السماء فهو طريق ضلال، أفصد بالهدى الهدى الإيمانى، لَمَّا يرسم لك طريقاً للنجاح في التجارة، هذا أمر آخر، له أسبابه ومعطياته، ونحن - المسلمون - نضيف له المعطيات الإيمانية من التوكل وحسن المعاملة وغير ذلك، لكن هو يرسم لك وفق معطياته، لكن أي إنسان يرسم لك طريق الهدى الإيمانى يقول لك: هذا يُتَجَنَّبُكَ من عذاب الله، إذا لم يُسْتَمَدَّ من كتاب الله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ "فُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ "فُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ "وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73)

[سورة آل عمران]

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ) من يشاء من العباد، والمعنى الأرجح المناسب دائماً للسياق يهدي به من يشاء الله تعالى. لكن قلنا دائماً: مشيئة الله في الهدى تأتي بناءً على رغبتك، فالذي يريد الهداية يشاء الله له الهداية، والذي يريد الضلال يشاء الله له الضلال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ "وَيُخَوِّفُوتُكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ "وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (36)

[سورة الزمر]

فإذا أضلَّ الله عبداً ضلالاً جزائياً مَبِيناً على ضلالٍ اختياريٍّ سابق، فلن تجد له من يهديه، لذلك قال تعالى لنبيه:

يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)
[سورة القصص]

والحمد لله رب العالمين

نور الدين الاسلامي